Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 52, No. 1, 2025

Deanship of Scientific Research

The Arabs Recognized about the Sacred Indian books: Rediscovering a Text by Al-Biruni

Youssef Ban El Mahdi*

Department of Creed and Dawa, Qatar University, Qatar.

Received: 3/2/2023
Revised: 5/6/2023
Accepted: 10/1/2024
Published online: 14/11/2024

* *Corresponding author:*
YB19306@qu.edu.qa

Citation: Ban El Mahdi, Y. (2024). The Arabs Recognized about the Sacred Indian books: Rediscovering a Text by Al-Biruni. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *52*(1), 233–243. https://doi.org/10.35516/hum.v52i1.4095

Abstract

Objectives: This study aims to revive research in Indian culture and religious traditions in response to modern scientific, cultural, and strategic challenges by shedding light on aspects of the origins of Arab Indology, which took significant strides with distinguished scholars, notably Abu Rayhan al-Biruni (443 AH-1051 AD).

Methods: The study primarily relied on expository research to gather and analyze data, resorting to historical analysis and comparison between what al-Biruni presented and what religious dictionaries have expanded upon.

Results: The study highlighted the Arab scientific community's need to revive "Indology," established by scholars of the Islamic civilization during the Abbasid era. It also underscored the significance of al-Biruni's writings regarding sacred Brahmanic texts, contributing to bringing them closer to interested parties, a feat not accomplished before this study.

Conclusions: Al-Biruni is considered the founder of Indology in our intellectual and cultural realm through his authored and translated religious books, notably his book "Verification of the Truth of the Hindu Saying Accepted in Reason or Rejected." He presented the most important sacred Sanskrit texts he could access during his journey to India, providing a detailed description of their names, content, and meanings. However, benefiting from al-Biruni's treasures in our era remains weak due to the difficulty of understanding his intended meaning without clarifying contexts, updating names and phrases, and providing necessary annotations and comments.

Keywords: Al-Biruni, Hinduism, Vedas, Puranas, Smriti, Mahabharata

تعرُّف العرب على الكتب الهندية المقدسة: إعادة اكتشاف نص للبيروني

يوسف محمد بنلمهدي*

قسم العقيدة والدعوة، جامعة قطر، الدوحة، قطر.

ملخّص

الأهداف: تسعى هذه الدراسة إلى استئناف حركة البحث في ثقافة الهند وتقاليدها الدينية، استجابة لتحديات علمية، وثقافية، واستراتيجية حديثة، وذلك من خلال إضاءة جوانب من أصول علم الهنديات العربي الذي خطى أهم خطواته مع أعلام مميزين، أبرزهم أبو الريحان البيروني (ت443 هـ 1051م).

المنهجية: اعتمدت الدراسة الاستقراء أساسا للبحث عن المعطيات وجمعها، وتوسلت بالتحليل التاريخي والمقارنة بين ما قدمه البيروني وبين ما بسطته المعاجم الدينية المتخصصة.

النتائج: بينت الدراسة حاجة البيئة العلمية العربية لاستئناف "علم الهنديات" الذي أسسه علماء الحضارة الإسلامية في العصر العباسي، وكشفت عن أهمية ما كتبه البيروني بخصوص النصوص البرهمية المقدسة، كما أسهمت في تقريبه للمهتمين، الأمر الذي لم يكن متحققا قبل هذه الدراسة.

الخلاصة: يعد البيروني مؤسسا لعلم الهنديات في مجالنا الفكري والثقافي، من خلال كتبه الدينية المؤلفة والمترجمة، وأبرزها كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" الذي عرض فيه أهم النصوص السنسكريتية المقدسة التي أمكنه الاطلاع عليها في رحلته لبلاد الهند، وقدم لعلماء الأديان في عصره والعصور الموالية، وصفا دقيقا عن أسمائها، وكتابها، ومضامينها... لكن الاستفادة من درر البيروني في عصرنا، تبقى ضعيفة، بسبب صعوبة الاهتداء إلى مقصوده دون توضيح السياقات، وتحديث الأسماء والعبارات، وتفسير معانيها بالحواشي والتعليقات الضرورية.

الكلمات الدالة: البيروني،الهندوسية، الفيدا ، البورانات، سمريتي، مهابهارتا.

© 2025 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مقدمة:

أنجبت حضارة الإسلام عددا من العلماء والمفكرين اللامعين في شتى العلوم والفنون، تركوا لنا آثارا عظيمة تحتاج إلى جهد ومثابرة حتى نستوعب مضامينها ونستفيد منها على أكمل وجه، وليس في هذا الكلام أي إنكار للجهد الذي يبذله المعاصرون؛ لكن أي رضى عن الوضع الحالي للدراسات الدينية والثقافية في مجالنا، فيه قدر كبير من تجاهل لقيمة تراثنا وتغافل عن المكانة التي ينبغي أن نتبوأها بين الأمم، خاصة عندما نجد أن بعض تلك الأعمال ربما انتفع بها المستشرقون أكثر من العرب، وذلك لأنهم نظروا في دقيقها وجليلها، واتخذوها وسائط لتعميق حقل الدراسات الثقافية والحضارية في مجالهم، واستفادوا من مناهج وأساليب العلوم الاجتماعية والإنسانية في فك رموزها وتحقيق مضامينها ... بينما يعاني هذا الحقل في مجالنا العربي من صعوبات بنيوية تجعل استيعابنا للتراث ودرره قاصرا وقدرتنا على تطويره وتجديده محدودة.

وهذا الحكم الأخير يصدق بدرجة كبيرة على تراث أبي الريحان البيروني، علامة الهنديات الأبرز في العالم الإسلامي الذي زار الهند في 11 م، ومكث فيها وقتا مكنه من التعرف إلى الثقافة الهندية وإتقان لغتها -السنسكريتية- والتعرف إلى أهم نصوصها الدينية المقدسة. وكأي عالم راسخ في مجاله دوّن ملاحظاته في كتابات ما زالت ذات قيمة مرجعية عند جمهور الباحثين في الهنديات في الشرق والغرب، بل إنه لا توجد موسوعة متخصصة في تاريخ الديانة البرهمية وكتبها المقدسة تخلو من اسمه أو تنكر جهده في التأسيس لدراسة ثقافة الهند وديانتها وتاريخها الروحي والثقافي والحضاري، اعتمادا على معالم رصينة سمتها العمق وسعة الاطلاع والموضوعية، مع إخلاص للمهمة النبيلة والتزام بالنزاهة العلمية والمنهجية في نقلها؛ بشهادة المتخصصين من علماء الهند أنفسهم، مثل البحاثة الهندي "أجاي ميترا شاستري" الذي وصف زيارة البيروني بأنها لم تكن مجرد زيارة للمعالم، بل كانت تعبيرا عن جهد صادق في التعرف إلى شعبها وإنجازاته الثقافية والعلمية، ثم نقل تلك المعرفة إلى غرب آسيا عن طريق العربية، من غير تحيز ولا تعصب (Shastri، 111).

وأخذا بعين الاعتبار ما يشهده العالم من تحولات غير مسبوقة في الفترة الحديثة والمعاصرة؛ أهمها عودة الأفكار الدينية والروحية الأسيوية للظهور في شكل موجات روحية جاذبة، وإيديولوجيات سياسية ذات بعد قومي وديني، تسعى نحو بسط نفوذها السياسي والثقافي في مجالها الجغرافي القريب والبعيد (فرما، 22-24) على حساب التعددية والتنوع، مما يثير بعض المشكلات الخطيرة التي تتعلق بالخصوصيات الدينية والحقوق الثقافية للأقليات خاصة المسلمين الذين يتحملون العبء الأكبر من المشاكل المرتبطة بسوء الفهم والتقدير لخصوصياتهم ... لهذا من واجبنا أن نولي هذا المجال الاهتمام الذي يستحق التزاما بشرطية العصر، ووفاء بحقوق من تقدم من علمائنا.

ومع أن دراسات كثيرة عنيت بالبيروني وتراثه، إلا أن الوقوف على مصادره التي تعرف عليها أو نهل منها لم تهتم به سوى دراسات معدودة، وهي إما دراسات عامة لا تهتم بالمصادر وتفاصيلها، أو دراسات متعمقة تفترض أن القارئ متخصص لا يحتاج إلى بيان في الموضوع، وأهم الدراسات التي وقفت عليها وحاولت تدارك ما فاتها في هذا البحث:

مقال "الأدب السنسكريتي المعروف للبيروني" لأجاي ميترا شاستري (Shastri، 111-138)، وهو مقال تحليلي، ذكر فيه صاحبه النصوص التي اطلع عليها البيروني، لكنه لم يقدم شروحا أو توضيحات حول تلك النصوص، وذلك لانتمائه إلى ثقافة الهند، وبالتالي لم يقدر أن ثمة حاجته إلى ذلك، والملاحظة نفسها تصدق على كتاب "الهند التي رأوا" وهو كتاب مخصص للحديث عن روايات الكتاب اليونانيين والرومان والصينيين والعرب حول الحضارة الهندية، ومع أنه خصص فصلا خاصا للكتب الدينية إلا أنه عبارة عن ترجمة مقتضبة لما قدمه البيروني، من غير توثيق ولا حواشي ولا مناقشة أكاديمية، كما أن الكتاب يظهر تحيزا ضد الفترة الإسلامية ويبالغ في مسألة التلاقح الثقافي بين الإسلام والهند (MEENAKSHI، 75-79).

ترجمة المستشرق الألماني "كارل إدورد سَخَاوْ" لكتاب تحقيق ما للهند من مقولة، بعنوان " Alberuni's India" وهي نفسها لم تقدم شروحا أو توضيحات، وقد استفدت منها في العثور على مقصود البيروني، وضبط أسماء الأعلام والكتب، مع أني لم أثبت الأسماء كما أثبتها سخاو في الغالب، وأثبت ما اتفقت عليه المعاجم، مع كتاب "The India They Saw " لمؤلفه جين مناكشي.

ومن الدراسات العربية في الموضوع كتاب نقد الأديان عند أبي الريحان البيروني للدكتور عمر بن سكا، والكتاب متخصص في التراث الديني للبيروني عموما، لهذا لم يفصل كثيرا في النصوص الدينية، وأشار إليها باقتضاب في المطلب الذي خصصه للحديث عن طرق جمع البيروني للمعلومات حول الأديان (سكا: 228-234).

المبحث الأول: تاريخ اكتشاف البرهمية وكتبها المقدسة

يرجع تاريخ العلاقات العربية الهندية إلى ما قبل الإسلام، بدليل ما تعكسه الثقافة العربية والشعر العربي من تمثلات حول الهند وأهلها وتجارتها(الندوي، 42، 105، أزهر، 2022)، ولعل البيت المنسوب لطرفة بن العبد أشهر ما يذكر هنا:

وظُلمُ ذَوِي القُرْبى أَشَدُّ مَضَاضة ... عَلَى المرءِ من وقع الحُسام المُهَنّدِ (الهندي، 48)

لكن رسوخ هذه العلاقة وتجاوزها الوجه التجاري إلى التفاعل الثقافي المباشر سيزدهر مع الإسلام الذي زرع في المسلمين التطلع إلى باقي الأمم للتعارف وللتعاون، ويمكن تأريخ بدأ تطلع المسلمين لفتح الهند إلى زمن الخليفة عثمان بن عفان والأمويين من بعده، كما يمكن عد فترة العباسيين فترة تعمق المسلمين في الهند ومجالاتها المختلفة؛ حيث عَرفت الهند بجغرافيتها وتاريخها وثقافتها عناية مبكرة من لدن المسلمين الذين خطوا مدونات قيمة كانت تعد أساس البحث في الهنديات إلى حين ظهور مدارس الاستشراق التي نشأت عالة على الكتابات العربية والفارسية (أمار، 12) قبل أن تستقل بمنهاجها وأحكامها، لكن بنيانها المعرفي ينبئ عن استفادة محققة من المعطيات التي حفظتها كتب الفتوح والتاريخ والجغرافيا والرحلة ومذكرات التجار وعمال البريد ... إلى غير ذلك من الكتابات العربية والإسلامية التي يتطلب تحقيبها والبحث في متونها عن المعطيات المتعلقة بالكتب المقدسة جهدا كبيرا؛ لكني في هذا البحث استفدت من تحقيب قام به العلامة سيد سليمان الندوي (الندوي، 36-49)، وعدت إلى تلك الكتب التي أحصاها بحثا عن غايتي التي تختلف عن غايته، فقد كان هدفه تأريخ العلاقات الهندية العربية، بينما غايتي هي البحث عن تاريخ تعرف العرب على النصوص الدينية الهندوسية، وفي الجانب الديني كان تركيزه أكثر على البوذية بينما حدود هذا البحث لا تتعدى الهندوسية .

المطلب الأول: البرهمية وكتبها المقدسة في المدونات العربية

لعل باكورة الكتب التي يمكن عدها في هذا السياق ألفها علَم ينتمي إلى نفس المجال الحضاري، ذلكم هو نجيح بن عبد الرحمن السندي المدني، أبو معشر (80 هـ- 170 هـ / 699م - 787 م) صاحب كتاب المغازي الذي نقل عنه الواقدي جملة من أخبار فتوح الهند، يليه الكتاب الذي ألف في ملل الهند وأديانها، لرجل بعثه يحيى بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم، ويفترض المستشرق الألماني "هلموت ريتر" أن هذا الكتاب من أول ما ألف في ملل الهند وأديانها، وزاد بذكر سبب من أسباب عناية البرامكة بأخبار الهند، وهو أنها كانت موطن جدهم الذي كان كاهنا بوذيا (المنجد، 61/1)؛ ومع أنه لم يصلنا من هذا الكتاب سوى ما احتفظ به ابن النديم في الفهرست، إلا أنه ذكر جملة من المعطيات عن الهند ليس من بينها وجود كتب دينية مقدسة عند الهنود، وممن نقل عن الكتاب المذكور أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجهاني، (ت 375هـ) في كتابه المسالك والممالك، وهو المعروف بكثرة التقصي عن أخبار الهند وأهلها، ومع أن كتابه كذلك في حكم المفقود إلا أن النقل عنه متوفر في كتب الجغرافيين ومن أبرزهم الإدريسي (ت559هـ) في نزهة المشتاق الذي لم يذكر شيئا عن الكتب المقدسة (الإدريسي، 186/1-199).

ومن الكتب التي عرفها العصر العباسي الثاني كتاب "عجائب الدنيا وقياس البلدان" المنسوب لسليمان التاجر الذي دون رحلته البحرية للهند والصين، سنة 237هـ/851م، تحدث فيها عن عادات وتقاليد الهند الدينية والاجتماعية وقارن بينها وبين عادات وتقاليد الصين، فتحدث عن السياحة في الغياض والجبال، والتناسخ، والعلاقات الأسرية، وطقوس الزواج ودفن الموتى، والعقوبات... وبالعودة إلى صدى الرحلة عند أبي زيد الحسن السيرافي الذي حفظها وزاد فيها بعض المعلومات؛ نجد حديثا عن تقديس الأصنام وطقس السُتي الذي يفرض على الزوجة إحراق نفسها مع جثة زوجها المتوفى وإلا لحقها العار، وحديث عن الأنبياء، وبوذا، والبراهمة (السيرافي، 1999، 47-85). وهي كلها مظاهر ثقافية شديدة الارتباط بالدين، لكنه لم يخبرنا عن الكتب المقدسة سواء الصينية أو الهندية (التاجر، 21-22) .

الأمر نفسه سيتكرر عند ابن خرداذبة (ت280هـ) الذي كان مديرا للبريد ودائرة الاستطلاعات السرية (الاستخبارات) زمن الخليفة المعتمد العباسي (الندوي، 36) ، فقد سطر في كتابه "المسالك والممالك" أخبارا موجزة عن الهند ومسالكها وطوائفها، يقول: "وملل أهل الهند اثنتان وأربعون ملّة منهم من يثبت الخالق- عزّ وجلّ- والرسل ومنهم من ينفى الرسل" (خرداذبة، 72) وهو نفس الأمر الذي أشار له المسعودي (ت 346هـ) الذي زار الهند وذكر في مروجه لمعا من أخبارها؛ أشار فيها لتعدد الفرق واللغات، وفكرة التناسخ، والاختلاف بين طوائفها حول حقيقة براهما، والحكماء السبعة، والفرق السبعون، وتقديس الملوك... لكنه أيضا لم يشر إلى الكتب (المسعودي،1973، 76-85) مع أنه في "أخبار الزمان وعجائب البلدان" أشار إلى رجل على ضفاف نهر مقدس عند الهنود يقرأ كتابا، ويقول للنهر: يا عظيم البركة، وسيل الجنة (المسعودي، 2013، 47)، ونعلم من أدبيات الهندوسية أن مثل هذه الطقوس تتم بتراتيل خاصة يترنم بها رجال دين مخصوصين يقرؤون من الفيدا أو الأوبانيشادات، لكن هذا الأمر لا يفيد الوعي بوجود كتب مقدسة على سبيل القطع، أو على أقل تقدير لا يفيد بوجود الوعي بأهمية هذه الكتب عند الجغرافيين والمؤرخين العرب.

وما رصدناه في كتب الرحلة والجغرافيا سنجده في مدونات طالبي علوم الهند؛ ونقصد بهم أولئك العلماء الذين قادهم الفضول العلمي إلى طلب ما عند الهنود من معارف تطبيقية كما طلبوا ما عند اليونان والسريان، مثل الفلكي محمد بن إسماعيل التنوخي الذي زار الهند تقريبا في ق3هـ/9 م كما افترض الندوي (الندوي، 132).

ومن جهتها لم تسلم كتب المقالات من الصمت عن ذكر الكتب وأسمائها، مع أن ذلك من صميم تخصصها، مثل كتاب المقالات للمتكلم المعتزلي محمد بن شداد بن عيسى، أبو يعلى المسمعي المعروف بزرقان، (ت 279 هـ)، الذي نقل عنه المتكلم الإمامي حسن بن موسى النوبختي (ت 310) في كتابه الآراء والديانات؛ مع أن كتب المقالات متهمة في موضوعيتها عند البيروني الذي انتقد ما كتب قبله ولم يزكي منها سوى الفيلسوف أبو العباس الإيرانشهري شيخ الرازي الطبيب، حيث أثنى على موضوعيته ومدح منهجه الذي قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مداهنة (البيروني، 1983، 4).

والاستثناء الأول الذي نعثر عليه هو ابن طاهر المقدسي (ت نحو 355هـ) في "البدء والتاريخ" فقد أشار في مقدمة حديثه عن البراهمة أن شأنهم شأن جميع الأقوام، لهم دين وأدب وشريعة، وذكر نبذا عن ذلك دون أن يحيل على كتب مقدسة معينة أو يخبر بوجودها فضلا عن مطالعتها. مع أنه يشعرنا بخلاف ذلك في بعض العبارات العامة من حديثه، مثل قوله: "اعلم أن لكل قوم دين ففي الدين بقاؤهم وصلاحهم وفي الأدب زينهم وشرفهم وفي الشريعة رسومهم ومعاملاتهم"(المقدسي، 4/9-10) وبصورة أوضح عند حديثه عن بوذية منطقة التبت في آسيا الوسطى الذين يسميهم السمنية؛ إذ نفهم من كلامه عن شمال الصين وغربها أنه واع بكتابهم المقدس، حيث ذكر أن لأهل الصين كتب دين، وهو يقصد بالطبع كتب البوذية كما أشار في موضع لاحق (المقدسي، 4/49-50) ولعله يقصد قانون بالي الكتاب الذي تقدسه البوذية وتنسب أغلب مضامينه إلى بوذا.

والغريب أن نجد في الفترة نفسها تطلعا من قبل بعض ملوك الهندوس التعرف إلى القرآن الكريم، وهذا أمر يؤشر على قوة حضور المسلمين وتجاوزهم حدود العلاقات التجارية إلى الدعوة والتفاعل الثقافي، ونقصد هنا ما حكاه كتاب "عجائب الهند" للرحالة بُزرُك بن شهريار (ت بعد 340هـ)، عن ترجمة معاني القرآن لمهروك ابن رائق أحد ملوك الهند بعد طلب تقدم به لصاحب المنصورة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، سنة سبعين ومائتين (برزك، 3-4).

بعد هذه الفترة مباشرة سيفتح مجال التعريف بالنصوص الدينية الهندوسية على يد البيروني الذي تعرف إليها وعرف بها وترجم بعضها، فوضع بصمة قوية أعلنت انطلاق علم الهنديات بصورة أكثر تطورا وعمقا من جهة الفهم لا النقد، لأن البيروني ركز على وصف الواقع كما شاهده وسمعه من غير بهت ولا تحرج، ولا استناد لآراء الخصوم (البيروني، 1983، 4)، ولم يقدر أن من مهامه نقد العقائد والتشريعات والنصوص، ولا ينبغي أن نرى في هذا المسلك تفوقا على المسلك النقدي للمتكلمين وعلماء والعقائد، وإنما هو التزام بتخصص الناقل ورسالته العلمية.

المطلب الثاني: البيروني مسار البحث والترجمة

هو الأستاذ أبو الريحان محمد بن أحمد البِيْروني، ولد بمدينة خوارزم سنة 362 هـ/973م، وتوفى سنة 443 هـ 1051م، شغف بالعلوم صغيرا وواصل مسيرته في التحصيل والاكتشاف رغم معاكسة الظروف الاجتماعية له، ولم يفتر شغفه بالعلم حتى وهو على فراش الموت، يحكي " الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى الولوالجي قائلا: دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه، قد حشرج نفسه وضاق به صدره، فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يوما حساب الجذرات الفاسدة؟ فقلت له إشفاقا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي: يا هذا أودّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرا من أن أخلّيها وأنا جاهل بها؟ فأعدت ذلك عليه وحفظ وعلمني ما وعد، وخرجت من عنده وأنا في الطريق، فسمعت الصراخ" (الحموي، 5/2332).

تجوّل من أجل إرواء ظمئه العلمي في الأمصار والبلدان المختلفة، ومن أشهر جولاته رحلاته المتكررة للهند والسند زمن الفتح والحكم الغزنوي، خاصة مع السلطان محمود الغزنوي (408 و421هـ،/1017-1030م) حاكم الدولة الغزنوية الذي اتخذ البيروني مرافقا له بحكم براعته في الفلك والتنجيم؛ ولا ينبغي أن نفهم من هذا أن البيروني كان في خدمة الطموح التوسعي للغزنويين، وإنما "الذي دفع به للقدوم إلى الهند لم يكن إلا رغبته في التجديد والابتكار في العلوم والثقافة" (الندوي، 133) كما أن علاقته بالغزنويين لم تكن دائما على أحسن حال.

المهم أن المشاركة في هذه الحملات قادت البيروني إلى كابول والبنجاب وكشمير، حيث التقى بعلمائها واطلع على ما سُمح له به من النصوص والملاحم الدينية والتقاليد العلمية فضلا عن اللغة والآداب... ومع أن تقدير مدة إقامته في الهند مسألة خلافية بين الدارسين، إلا أنها لا تصل لأربعين سنة كما ذكر البيهقي (ظهير الدين، 72) ولا سنتين كما في تقديرات بعض الباحثين الهنود(SHASTRI، 1975) إذ المقصود بالسنتين في مسيرته هو فترة أولية قضاها في كابول من 1018 إلى 1020م تعلم فيهما السنسكريتية، لأن كابول كانت تحت حكم الهندوس قبل أن يفتحها محمود الغزنوي سنة 1002م. والراجح أن زياراته للهند كانت فترات متقطعة في ظل مرافقته للحملات الغزنوية ولعلها 12 أو 13 سنة كما رجح سليمان الندوي، وبحثه في الأصل كان عن المعرفة الفلكية؛ لهذا يمكن القول: بأن التفاعل الذي نشأ بين المسلمين والهنود في القرن الثاني وما والاه، مزج بين الحوار العلمي في مجال الفلك والتقويم والطب، والاكتشاف الثقافي في مجال العقائد والديانات والعادات، وأسهم في التعارف العلمي من خلال الترجمة المزدوجة بين العربية والسنسكريتية.

وبخصوص الإنتاج العلمي، كان البيروني من المكثرين في التأليف، فقد ألف وترجم كتبا في علوم النجوم والهيئة والمنطق والحكمة وبلغت فهرستها كما يذكر ياقوت نحو الستين ورقة بخط مكتنز "(الحموي، 5/2333). وبإحصاء فهرسة كتبه ورسائله نجدها تناهز مائة وتسعين تأليفا، 113 منها نص عليها البيروني نفسه ضمن فهرست أبي زكريا الرازي التي يرجع تاريخها إلى سنة 427هـ، وهي منشورة ضمن نشرة المستشرق سخاو في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية (Sachau، 38-48). والبقية ألفها بعد ذلك، وهي مؤلفات غزيرة توشك أن تغطي أغلب التخصصات العلمية في عصره؛ حيث شملت اثنا عشر حقلا معرفيا هي: الجغرافيا، التاريخ، الرياضيات، الحساب، الإسطرلاب، الشعاعات، الأوقات والتقاويم، العقائد والرسوم، الأحكام والنجوم، الأدب والقصص، الزيج والرصد، علم الكواكب، الكيمياء والمعادن والأحجار(حمودة، 63-77).

وقد خصص البيروني قسما يسيرا من نشاطه العلمي للأديان ضم تأليفين وترجمتين:

1. كتابي البيروني في الأديان:

الأول هو كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، عني فيه بالتأريخ لمناسبات الأمم والطوائف الدينية وعاداتها وطقوسها وبعض عقائدها، ولمع عن سير الأنبياء والمتنبئين ومدعي الألوهية والهداية، وهو كتاب يقدم معلومات قيمة عن الأديان وأصحابها اعتمادا على أسلوب الوصف والسرد، لهذا يمكن عده ضمن كتب الرصد الثقافي التي تقدم تأريخا للحياة الروحية والثقافية للأمم من غير ميل ولا مداهنة ولا عداوة ومخاصمة، هدفه الفهم لا التعصب

ولا يمكن أن نعد هذا تقصيرا من قبله، فحضوره العلمي كان قويا في تخصصاته الدقيقة التي لم تتضمن الفلسفة والكلام، فاحترم تخصصه ومنهجه في النظر للأديان؛ ولم يكن ذلك لأنه كان عازفا عن المناظرة والجدل؛ بل بالعكس كان يرى أنهما أساس تطور العلوم، حتى إننا نجد من جملة نقده لضعف العلوم الهندية أنها تسلك أسلوب العزلة والتميز عن الغير، يقول عن كتبهم الفلكية: "إنها بدر مختلط ببعر... يزيد ذلك ما ذهبوا إليه من التميز عن غيرهم والنهي عن الاختلاط بهم ولولا ذلك لتهذبوا بمعارضات الخصوم وإنكارهم ما عندهم (soha، 78) .

الكتاب الثاني هو المعروف بـ"كتاب الهند" أو كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"، الكتاب الذي أظهر تميز البيروني بسمات خاصة في تاريخ المعرفة العربية الإسلامية؛ جمع فيه أخبار الهند بوعي وإتقان، ويمكن عده أفضل كتبه الدينية على الإطلاق، لأنه اعتمد فيه على الدراسة الميدانية والمعرفة المباشرة دون وساطة، وجرد منهجه عن الجدل والحجاج، وحصنه بالوصف والحكاية.

2. ترجمة البيروني للنصوص الدينية الهندية

اللغة الهندية لغة آرية الأصل تتفرع إلى لغات ولهجات أبرزها الفيدية القديمة لغة الكتاب المقدس للهندوس "فيدا" والبالية لغة النص الأقدس للبوذية "قانون بالي"، إضافة للّهجات العامية التي يطلق عليها "البراكريتية" تمييزا لها عن السنسكريتية الفصحى التي كانت لغة الأداب والعلوم الهندية زمن البيروني، وهي التي تعلّمها البيروني وترجم منها وإليها كتبا ونصوصا علمية ودينية وأدبية، ولا شك أن عملية الترجمة عن السنسكريتية حفت بصعوبات جمة ترجع لتباين الخصائص اللسانية والنحوية للعربية والسنسكريتية، وبخصوص موضوعنا الذي هو النصوص الدينية ترجع لتباين التصورات الدينية والثقافية بين الإسلام والهندوسية، وقد أحصت بعض الدراسات الصعوبات التي تحدث عنها البيروني، مثل كثرة الأسماء لمسمى واحد حتى بلغت أسامي الشمس ألف اسم، وعدم تطابق مخارج الحروف بين العربية والسنسكريتية، وكثرة السواكن واجتماعها وتفاوت النطق بين العامية والفصحى، واعتمادهم الوزن في الكتابة، وتساهلهم في الضبط عند النسخ (الدراويش، 66-67).

وقد تغلب البيروني على الصعوبات بالمثابرة والاستعانة بعلماء الهند؛ حيث كان يقرأ عليهم الكتاب ويفسره له قبل أن ينقله البيروني للعربية، كما أضاف عبارات توضيحية لتقريب المعنى، مثل "بشن دهرم" ومعناه دين الله، و"جورامن" ومعناه علم الغيب، ومنها ترجمته لـ"ديت" بأنهم الملائكة و"أندر" بأنه رئيس الملائكة و"ناران" بأنه الرسول و"بيشاح" بأنهم الأبالسة و"جم" بأنه ملك الموت عزرائيل... (الدراويش، 73-77-95) لكن مع ذلك تبقى الترجمات تقريبية واجتهادية، يقول البيروني: " ونحن نحكي أقاويلهم في ذلك بحسب ترجمتنا فان خالفت الألفاظ ما جرت عليه العادة فليعتبر بها المعاني فانّها المطلوبة" ويقول في مقدمة باتنجل: "وكتبهم منظومة بأوزان ونصوصها مفسرة بما يعسر نقله كله... لذلك اضطررت في النقل إلى خلط النص بذلك التفسير وإجراء الكلام على ما يشبه السؤال والجواب وإسقاط ما يتعلق بالنحو واللغة (soha، 3-4)". والواقع أن ما قام به البيروني بخصوص كتاب بتنجالي هو نفسه ما تقوم به الترجمات المعاصرة، ومنها الترجمة التي نقلت النص عن الإنجليزية للعربية.

والكتابان اللذان ترجمهما البيروني هما:

"سانك" أو كتاب سامخياSamkhya النص الأساسي لفلسفة سامخيا، ألفه الحكيم كابيلا "Kapila" عاش في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، والذي ينسب إليه تأسيس فلسفة سامخيا، ومضمونه يتحدث عن المبادئ وصفة الموجودات، وهو اليوم في حكم المفقود.

كتاب "باتنجل" وهو ترجمة تعاليم "بتنجالي" أو "يوغا سوترا"، الكتاب الذي صرح البيروني أنه تلقاه عن الهنود بالحرف، وذكر أن موضوعه في تخليص النفس من رباط البدن عبر التعويد والزهد والعبادة والتخلق، وهو كتاب على شكل حوار بين سائل ومجيب، والمجيب هو الحكيم "باتنجالي" أحد حكماء فلسفة اليوغا في مدرسة "السامخيا" يرجح أنه عاش بين القرنين الرابع قبل الميلاد والقرن الرابع بعده، يقدم تعاليم محورية حول اليوغا وأهدافها وكيفية ممارستها، ويلخص فيه أهم مبادئ الفلسفة الهندوسية في الحلول والاتحاد والتناسخ والولادة الجديدة ... مع أن أصول تلك التعاليم موجودة في "كاثا – أبانيشاد" وعمل باتنجالي أنه قربها لأبناء عصره بلغتهم (براباهافانندا، 13). وقد اهتدى المستشرق ريتر إلى نسخة متهالكة من الكتاب في مكتبة كوبرولو في إستانبول وقدم عليه دراسة دقيقة، كما طبع الكتاب بعنوان "كتاب باتنجل الهندي في الخلاص من الارتباك" بتحقيق منوچهر صدوق سُها، طهران 2001م.

المبحث الثاني: وصف البيروني لطبقات الأدب الهندوسي المقدس:

الكتاب المقدس الهندوسي كما عرفه سوامي دايانداندا في كتابه "مقدمة إلى فيدانتا"، هو "مجموعة من المعارف التي تعتبر ذات سلطة إلهية حول أمور لا يمكن معرفتها بالوسائل العادية للمعرفة (Dayananda،92)؛ والمقصود هنا تلك النصوص التي تنعت بكونها شروتي: أي النصوص المسموعة، وتشير التقاليد الهندوسية إلى أنها من مصدر إلهي، وأنها أبدية ومنزهة عن الخطأ والتحريف، وذلك بالرغم من فقدانها لجملة من خصائص النصوص

الدينية، كالوضوح والانسجام والتنظيم واللغة المباشرة، وأهم أقسامها؛ الفيدا وملحقاته. ثم تاتي النصوص التي صاغها الحكماء والمعلمون من الفيدا نفسه، وهي نصوص متنوعة في بنيتها الأدبية وموضوعاتها الدينية والفلسفية، وتنعت بكونها نصوص "سمريتي": أي النصوص المحفوظة في الذاكرة، وتقدم معارف وطقوس وتشريعات مباشرة للحياة العامة، وأشهرها نصوص الدارماشاسترا والپورانات والملاحم وكتب الحكمة...

وهدف كل من "شروتي" و"سمريتي" هو تعليم تقاليد ما يسميه البراهمة "ساناتانا دارما Sanatan Dharma ومعناها الدين الخالد، وذلك قبل أن يظهر مصطلح الهندوسية على يد الكتاب البريطانيين في أواخر القرن الثامن عشر، ليعتمد بعدها رسميا عند جل علماء الهنديات، وهي نفسها الديانة التي عرفت عند المسلمين بالبراهمية. ومن خلال مطالعة الفصل الذي خصصه البيروني لـ" ذكر الفيدا والپُرَانَات وكتبهم المليّة "نجده يصف لنا مجموعات مهمة من النصوص الأدبية المقدسة في "ساناتانا دارما"وهي:

أ- الفيدا (بيد):

حديث البيروني عن الفيدا عميق جدا، ويمكن مقارنته بأشهر القواميس والكتب المتخصصة دون أي تناقض، بل إن بعض المعاجم تتخذ البيروني مصدرا من مصادرها المبكرة بسبب أولية أخذه عن البراهمة مباشرة، من ذلك إشارته إلى اعتقاد الهندوس أو جلهم أن الفيدا كلام منسوب إلى براهما؛ مصدر الكائنات كلها في الهندوسية، وذكره تباين مذاهبهم في اعتقاد إعجاز نظمه وقدرة البشر على الإتيان بمثله، فمنهم من "يقول: إنّه معجز لا يقدر أحد منهم أن ينظم مثله، والمحصّلون منهم يزعمون أنّ ذلك في مقدورهم لكنّهم ممنوعون عنه احتراما له" (البيروني، 1958، 89)؛ وذكره لأهم مضامينه الدينية التي تتمحور حول الواجبات والمحظورات والترغيب والترهيب والثواب والعقاب، بينما القسم الأكبر منه يتعلق بالتعويذات التي تتلى بمناسبات طقوس "ياجنا" أو قرابين النار المختلفة .

ومما رصده البيروني حول الفيدا أن فئة قليلة من رجال الدين هم من يعرف تفاسيرها ويستطيع إدراك تأويلاتها وفق منهجية الحكماء وما تقتضيه من النظر والجدل، وذلك لأن الفلسفة الدينية والتشريعية والأخلاقية التي يقدمها الأدب الهندي المقدس، غير منسجمة ومعقدة ومتناقضة أحيانا، وهذا جعل من الصعب إدراكها على البراهمة العاديين الذين تفرغوا للطقوس والقرابين؛ في الوقت الذي اختص فيه الحكماء والمعلمون بفهم النصوص الدينية وبنيتها اللغوية والبلاغية وفلسفتها الروحية، مع الإشارة إلى أن التقليد الهندوسي يعطي أهمية أكبر للتلقي المباشر عن المعلمين أكثر من الكتب. (SCHREINER,199)

كما سرد البيروني طرائف من حكايات الهندوس عن التاريخ الأسطوري للفيدا؛ مثل تجدده في كل دورة كونية "مانفانتاراManvantara "، ومثل سرقته من قبل الشيطان "هياجريفا" وإنقاذه من قبل "فشنو" عبر تجسده في صورة سمكة، وكذلك ضياعه في نهاية الدورة الحياتية الأخيرة "دواپرا يوغا "Dvapara-yuga " وتجديده من قبل الحكيم فياسا بن الحكيم براشارا. ويلحق بهذه الأساطير اعتقاد البراهمة بالأثر السلبي لقراءة بعض نصوصه في الأماكن المأهولة، لأن ذلك قد يتسبب في إسقاط حبالى الناس والبهائم مما يجعلهم يصحرون لقراءتها، كما ذكر البيروني، بمعنى يخرجون إلى الأماكن النائية بعيدا عن الناس.

ومن المعطيات التي تعد بالغة الأهمية في وصف البيروني للفيدا، تحديده للحظة انتقاله من المشافهة إلى التدوين؛ والأثر الكبير للمعلم فاسوكرا الكشميري vasukra التي تجاوز تحرّج غيره من البراهمة، وتصدى لتدوين نصوصه وتفسيرها خشية الضياع والنسيان(SCHARFE,9) .

ومعلوم عن الفيدا أنه يضم أربع مجموعات، هي: ريك فيدا وياجور فيدا وسما فيدا وأتارفا فيدا، وكل مجموعة تقسم إلى طبقات هي: سمهيتا (ترانيم) وبراهمانا (طقوس) وأرانياكا (إلهيات) وأوبانشادا (حكمة)، وهذا التقسيم الرباعي نسبه البيروني للحكيم "فياسا" الذي جزأها وخص كل تلميذ (شيشيا śisya) من تلاميذه الأربعة بمعارف كل واحد منها:

- **ريك فيدا:** أي أبيات المعرفة، مركّب من نظم يسمى «رچ»، عبارة عن أدعية وصلوات وتراتيل شعرية وتعويذات لقرابين النار، وهو الأول في الأدب الفيدي المقدس، لقدمه وتأثيره في كل النصوص اللاحقة، خص به "فياسا" تلميذه "بيلاPaila "، ويقرأ بثلاثة أصناف من القراءة هي: سامهيتا باتا : (Samhita-Patha)حيث تظل الترنيمة في شكلها الحقيقي. وبادا باتا (.Pada-Patha) حيث يتم نطق كل كلمة من الترانيم بشكل منفصل. وكارما باتا (Krama-Patha)حيث يتم التحدث بكلمتين من الترينمة معًا (JOHNSON,235).وتعليل هذا الانفصال يتم من خلال سرد أسطورة تحكى عن الحكيم والمعلم الهندوسي ياجيافلكيا Yajnavalkya الذي اختلف مع معلمه فايشامباينا، وأرجع له ما تعلم منه من الفيدا، ثم تعلق بعجلة الشمس ليتعلم الفيدا، واضطرّ إلى تقطيع القراءة لأجل الاضطراب في حركة العجلة. (البيروني، 1958، 90).

- **ياجور فيدا:** من ياجنا yajna ومعناها طقس القربان، وهي عبارة دالة على مواضيعه التي لا تختلف عن سابقه، أخذه عن فياسا الحكيم "فايشامباينا Vaisampayana "، ونظْمه مقسم إلى كاندات من كاندا أو كاندي Kāṇḍin kanda ، التي تعني أقسام أو أجزاء، ويمكن قراءته متصلا بخلاف ريك فيدا.

- **سما فيدا:** ألحان وأناشيد المعرفة من سامان Saman وهي ألحان وأناشيد المعرفة، تضم مجموعة تراتيل دينية من «الريك فيدا». مع إعادة صياغة، أخذها عن فياسا جايميني Jaimini مؤسس مدرسة ميمامسا. وذكر البيروني في سبب لحنه الغنائي أسطورة التجسد الخامس لنارايانا

Narayanaفي صورة فامانا Vamana (القزم) وقدومه على الملك باليBali ، وقراءته "ساما فيدا" بلحن شجيّ.

- **أتارفا فيدا:** Atharva-Veda أخذه عن فياسا تلميذه "سومانتا Sumantu "وبناؤه جاء على وزن بهاتي Bṛhatī- bhara أحد الأوزان التي بنيت عليها ترانيم الفيدا، ويقرأ بلحن مع غنّة. يضم مجموعة من التعويذات للحماية من الشياطين والأعداء، وسوء الحظ والأمراض وطرد الأفاعي ... وذكر البيروني أن رغبة الناس فيه أقلّ، وهذا دقيق إذ لا يوجد إجماع بين المدارس الهندوسية على أنه كتاب إلهي مقدس.

تبقى مسألة أخيرة ينبغي الإشارة لها، وهي إن البيروني مع معرفته بالفيدا وأصلها وطبيعة ما تقدمه من تعاليم، إلا أنه من غير المرجح أن يكون قد اطلع على نسخها المكتوبة أو تلقاها مشافهة كما تلقى غيرها؛ وذلك مرجعه لأسباب دينية تمنع إطلاع الأجنبي على تلك النصوص، بل إنها تمنع تعليمها حتى لعامة الهندوس من طبقة الفيشيا (الصناع والفلاحين) والشودرا (الخدم)، وتعاقب على مخالفة ذلك بقطع اللسان؛ ويمكن تعزيز هذه الحجة بما نقله المقدسي من اعتقاد الهندوس في الهند بنجاسة المسلمين ونجاسة ما يمسونه، يقول المقدسي: "والمسلمون عندهم نجس لا يمسونهم ولا يمسون ما يمسونه" (المقدسي، 12/4)، وذلك بخلاف نساك جزيرة سرنديب الذين "يحبون المسلمين ويميلون إليهم ميلا شديدا". (الندوي، 165)، وذلك بناء على معايشة وتجربة كما ذكر ابن بطوطة (بطوطة، 80/4)، لكن الأكيد التي تثبته ملاحظات البيروني هو إدراكه لتاريخ الفيدات ووعيه بتأثيرها وأهميتها في تحقيق أهداف الحياة الدينية والأخلاقية والثقافية في الهندوسية، كالأمن والمتعة والرؤية السليمة للعالم والسعي وراء المعرفة والتحرر...

ب- الپوراناتpurāṇas:

الپوراناس كلمة سنسكريتية معناها الأول أو القديم، وهي مجموعة كتب من الأدب الديني الهندوسي تنسب للريشين، أي الحكماء، وتأتي في المرتبة الثانية بعد الفيدات رمزيا؛ لكن عند التدقيق نجدها أساس الحياة الدينية الشعبية، وغالبها يتخذ أسماء الآلهة الهندوسية الرئيسية في حضورها الدنيوي عبر "التجسد"، مثل فيشنو(الحافظ) وشيفا (المدمر) وديفي... وبعبارة البيروني فهي مسمّاة بأسماء حيوانات وأناس وملائكة؛ وجدير بالذكر أن لفظ "الملائكة" هنا تقريبي فقط ولا يقصد به المعنى الموجود في الشرائع الكتابية وخاصة الإسلام، فلا يوجد ذلك في الهندوسية الحالية، وربما كان في السابق، وإنما يعتقد الهندوس بوجود كائنات خارقة بعدد غير محدود تؤدي أعمالًا لا يمكن أن يقوم بها البشر العاديون، وهم "ديڤاس" أو "ديڤي" المذكرة و"الديفتاس" المؤنثة.

وتتناول مجموعة واسعة وغير متسقة من الموضوعات، مثل اللاهوت والفلسفة، ونشأة الكون، وعلم الكونيات، وسلسلة أنساب الآلهة والملوك، والأبطال الخارقين، والحكماء، وأنصاف الآلهة، والأساطير والقصص والملاحم، والزيارات، والمعابد المقدسة، والطب، والفلك، والقواعد الأخلاقية، والفنون والأيقونات... تعد المصدر المباشر لمعارف البيروني عن البراهمية، فقد صرح أنه أخذها عن المعلمين البراهمة مباشرة أي سماعا من الأفواه ، واستفاد منها نظرة البراهمة لأصل العالم والزمن والكائنات المختلفة، لكنه لم يشاهد منها غير قطع من: « ماتسيا بوران » و« آدي پورانا » و«فايو بورانا»؛ وذكر منها :

1 - آدي پورانا Adi Purana أي الأول، تم إدراجه كأول مها(كبيرة) پورانا في جميع مختارات مها پوراناس الثماني عشرة، وتوجد آدي پورانا أخرى في أوبا پورانا، لهذا غالبا ما تسمى هذه "براهما مها پورانا"، لكنه يعد اسما ملفقا؛ لأن مضمونه لا علاقة له بنص براهما بورانا، والقسم الكبير منها يغطي معابد شيفا وفيشنو وديفي (شاكتي) وسوريا، ومناطق الحج المقدسة في منطقة نهر جودافاري ثاني أكبر نهر في الهند بعد الغانج ونهر شامبال في راجيستان. زيادة على 18 فصلا من 245 فصلا تغطي علم الكونيات، والأساطير، وعلم الأنساب... وأحيانا تسمى سوريا پورانا، نسبة للإله سوريا (MANI, 618; WERNER,22)

2 - ماتسيا بوران Matsya Purana ماتسيا تعني السمكة كما ذكر البيروني، وتعبر عن التجسد الأول من بين عشرة تجسدات كبرى لفيشنو، تسمى داشافاتارا. (Dashavatara) سمي بذلك لأنه يصف تجسد فيشنو في صورة سمكة نصحت مَنُو- المخلوق الأول- ببناء فلك لحفظ حياته وحفظ بذور جميع النباتات والكائنات الحية المتنقلة في العالم، والنجاة من الطوفان العظيم (WERNER 108) الذي دمر العوالم العشرة في نهاية "البرالايا" – Pralaya-، حيث تم بقيادة مَنُو الذي جمعها بقوة اليوغا ووضعها في الفلك، ووصلها بقرن السمكة لتجرها، بالإضافة إلى حفظ كتب المعرفة (الفيدا) من قبل فشنو المتجسد في سمكة. يتضمن توجيهات أخلاقية، وحديثا عن قيمة الدانا (الأعمال الخيرية)... كما يصف تصميم المعابد والمنحوتات. (MANI, P 618)

3 - كورما پورانا Kurma Purana كورما تعني السلحفاة، وهو التجسد الرئيسي الثاني من تجسيدات فيشنو، لتسهيل تموج المحيط الكوني من خلال العمل كقاعدة لجبل "ماندارا" بحيث يمكن قلبه بسهولة. يتكون القسم الموجود منها من جزئين مقسمين إلى فقرات. وحوالي 6000 فقرة (آية). والطبعة الإنجليزية تتكون من 46 فصلا كل فصل مقسم إلى فقرات (آيات) تتضمن أساطير والحج ومعلومات لاهوتية عن شيفا وفيشنو (JOHNSON,65; WERNER, 93).

4 - فارها پورانا (Varaha) الخنزير وهو التجسد الثالث لفيشنو اتخذه لرفع الأرض من قاع البحر بعد أن جرها الشيطان هيرانياكشا إلى قاع البحر بعد معركة دامت 1000 عام، رفع فارا الأرض من الماء بأنيابه (JOHNSON,65;PH:P 618) .

5 - ناراسيمها پورانا Narasimha (الرجل الأسد)، تعد أوبا پورانا وتحكي أسطورة التجسد الرابع لفيشنو، اتخذه لقتل الشيطان "هيرانياكشا" الذي

يرمز للجهل وكان يسبب مشاكل ولا يستطيع أحد قتله بسبب أنه كان محميا بطريقة سحرية (JOHNSON,65; LONG, 210).

6 -فامانا بورانا" Vamana Purana القزم" هو التجسد الخامس لفيشنو، اتخذه لاستعادة الكون من الحاكم الشيطاني بالي، الذي سيطر على الكون بأكمله بينما فقدت الآلهة قوتها، تقول الأسطورة أن فامانا زار محكمة بالي وتوسل إليه أن يمنحه حكما على الأرض بقدر ما يستطيع أن يتخطاها في ثلاث خطوات. وافق الملك ضاحكًا على الطلب. بافتراض شكلها الضخم، ثم تحول فامانا إلى عملاق غطت خطوته الأولى الأرض بأكملها، وبخطوة ثانية غطت الوسط بين الأرض والسماء. ونظرًا لأنه لم يكن هناك مكان ليذهب إليه، خفض الحاكم الشيطاني بالي رأسه واقترح أن يضع فامانا قدمه عليه للخطوة الثالثة الموعودة. وبضغط قدمه أرسل بالي إلى الأسفل ليحكم العالم السفلي (WERNER, 169; JOHNSON,65, MANI, 618)

7 - فايو بوران Vayu : إله الريح في الأساطير الهندوسية، يقع الكتاب في نسخته الكانادية في ستة أجزاء، والإنجليزية في جزئين كبيرين ويتحدث عن علم الكونيات وأنساب الآلهة وملوك السلالات الشمسية والقمرية والأساطير والجغرافيا والنظام الشمسي وحركات الأجرام السماوية بالإضافة إلى واجبات الطبقة (فارنا)، وواجبات الإنسان في مراحل حياته (أشراما). وطقوس التطهير والتكفير والجحيم في الحياة الاخرة والموسيقى والمعابد (LONG, 313; MANI, 618) .

8 - ناندي بورانا nandi خادم شيفا وحارس بوابته ووسيلته في التنقل، أصله ثور يتمثل بصورة إنسان في الغالب. وهو من البورانات الثانوية . JOHNSON,534أَلمع البيروني إلى أنه خادم لمهاديفا Mahadeva وهي عبارة تعني الإله العظيم، وهو من ألقاب الإله شيفا أحد أفراد الثالوث الهندوسي مع براهما وفيشنو. (WERNER,100).

9 - سكاندا بورانا Skanda Purana ابن شيفا وبارفاتي، المعروف أيضًا باسم كارتيكيا وموروجان وهو إله الحرب، سكاندا پورانا أكبر البورانات الثمانية عشر، بمقدار 81000 فقرة، طبع في سبعة أجزاء و20 مجلدا .

10 - آديتيا بورانا Adityapurana نسبة لأديتيا Adityas - وهو الاسم الآخر لإلهة الشمس سوريا.

11 - سوما بورانا soma :سوما إله القمر وحارس الأعشاب الذي يركب سيارة تجرها الظباء أو في عربة بثلاث عجلات تجرها عشرة خيول بيضاء، اختطف "تارا"، زوجة "برهاسباتي"، ونتيجة لذلك أنجبت بوذا (كوكب عطارد) (WERNER,144) .

12 - سامبا پورانا Samba Purana :من النصوص الثانوية، يتكون النص المطبوع من 84 فصلا في مجلدين، تسرد أسطورة إصابة سامبا ابن كريشنا الذي يمثل التجسد الكامل لفيشنو بالجذام بعد أن لعنه الحكيم دورفاسا Durvasa لأنه سخر منه، وكيف تم شفاؤه من خلال عبادة سوريا في المعبد الذي بناه لها في ميترافانا على ضفاف شاندرابهاغا لمدة 12 سنة.

13 - براهماندا پورانا BrahmandaPurana طبع في سبعة أجزاء و20 مجلدا.

14 - ماركنديو پورانا Markandeya Purana من كبار الحكماء الهندوس، نجده في نصوص البورانا مثل هذا النص وبهاغافاتا پورانا وفي المهابهارتا، مركنديو پران عبارة عن حوار بين مركنديو والحكيم جايمني، يعتقد الهندوس أنه انتصر على الموت، ومنح حياة أبدية من قبل شيفا (MANI, P 618).

15 - تاركشيا پورانا Tarksya Purana وتسمى أيضا غارودا پورانا Garuda Purana من نصوص مها پورانا وتعد مع بهاغافاتا پورانا وفيشنو پورانا ، ساتفا پورانا (پورانا يمثل الخير والنقاء). المؤلف المفترض هو الحكيم فياسا. يحتوي النص على علم الكونيات، والأساطير، والعلاقة بين الآلهة، والأخلاق، واليوغا، والجنة والجحيم" مع "الكارما (قانون الجزاء من جنس العمل) والولادة الجديدة (التناسخ)"، وأنواع المعادن والأحجار الكريمة، والنباتات والأعشاب، والأمراض المختلفة وأعراضها، والأدوية المختلفة، والتقويم الهندوسي وأساسه بناء المنازل والمعابد، تدبير الملك وسياسة الرعية...

16 - فشنو پورانا واحدة من أهم البورانا ت الرئيسية "مهاپورانا" يتضمن معلومات عن علم الكونيات الهندوسية... تتألف النسخة المتداولة من 7000 فقرة من أصل 23000 فقرة كان يحتوي عليها في الأصل، وهي 126 فصلا adhyāyas في ستة أجزاء aṁśas متباينة من حيث الحجم والموضوع؛ حيث يتناول الجزء الأول علم الكونيات في 22 فصلا، والجزء الثاني يتناول الأرض والقارات السع والمحيطات السبعة في 16 فصلا، والجزء الثالث يتناول الزمن وفقا للتصور الديني الهندوسي والواجبات الأخلاقية المرتبطة به في 18 فصلا، والجزء الرابع يتناول الأنساب الأسطورية للآلهة والملوك والحكماء في 24 فصلا. والجزء الخامس يتناول أسطورة تجسد فيشنو في صورة كريشنا، من 38 فصلا، والجزء السادس والأخير يتناول التحرر والاتحاد ببراهما عبر اليوغا والتحلي بأهم الفضائل الأخلاقية من 8 فصول (MANI,617; HALL,1968)

17 - براهما بورانا Brahma Purana :لعلها براهماندا پورانا من البورانات الرئيسة يأتي متاخرا في الغالب، ومعنى براهما أندا "البيضة الكونية" أو "بيضة براهما"، وموضوعه الرئيس هو وصف مفصل لخلق الكون وفق الميثولوجيا الهندوسية، إضافة إلى مواضيع أخرى أهمها تمجيد آلهة متنوعة مثل براهما وفيشنو وشيفا وغانيشا وسوريا وشاكتي...

18 - بهافيشيا بورانا Bhavishya Purana :معنى بهافيشيا" Bhavishya المستقبل" وذلك لأنه يحتوي على نبوءات بخصوص المستقبل، ومنها نبوءة "كالكي أفتار" أو التجسد العاشر لفيشنو الحافظ، الذي سيمحو الجهل والظلام ويحقق العدالة والمساواة... وهو الذي تذكر بعض التأويلات الحديثة أنه تضمن إشارات لقدوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، (جمعة، 26-27)، لكن مع التسليم بالتشابه الواقع مع رسالة النبي عليه الصلاة والسلام

والحالة الأخلاقية التي واجهها في مكة، إلا أنه من الناحية العقدية يصعب ادعاء ذلك، لأن التجسد المذكور محاط بتفاصيل العقائد الهندوسية التي لا يمكن أبدا مجاراتها، كما أن القدامى، ومنهم البيروني لم يذكروا ذلك.

ج- دارما شاسترا Dharma Śāstrās:

وتعرف أيضا بنصوص سمريتي، ومعناها ما يتم تذكره من الأوامر والنواهي لفعل الصواب، تعد مصدرا رئيسا للدارما ولا تقل أهميتها عن شروتي، لهذا يطلق عليها اسم دارما شاسترا، وذلك لأن نصوص الدارما تنسب للحكماء والمعلمين، الذين عرفوا بالورع والفضيلة وتمكنوا من فهم الفيدا واستلهامها في كتبهم، وهي بذلك تقدم معارف ومعاني تم اقتباسها من نصوص شروتي؛ أي من الفيدا وطبقاتها، لهذا فهي تنسجم معها ولا تعارضها، أما في حالة وجود تعارض بين شروتي وسمريتي وبورانا، فإن الأوامر الفيدية وحدها صاحبة السلطة، وحيث يوجد تعارض بين سمريتي وپورانات، فإن تعاليم سمريتي أقوى.(LONG, 282) .

ويبقى الطابع التشريعي هو الغالب على نصوص دارما شاسترا، كما أن سعيها لتوجيه الأفراد والجماعات في مختلف أمور الحياة واضح؛ كتنظيم حياة الرهبنة والأسرة والزواج والمرأة والقضاء والضرائب والعلاقة بالحكام... ويسعى لتحقيق الانسجام مع الطبيعة والتقاليد، لهذا تقدم توجيهات مفصلة لما يجب القيام به في حق الكائن (Jīva) من بدايتها إلى نهايتها؛ من الحمل إلى الولادة والنمو والتعليم والزواج ورعاية الأسرة، والواجبات تجاه الأسرة والمجتمع، كما تقدم مخططا تفصيليا لقضاء اليوم من الاستيقاظ حتى النوم، اطلع عليها البيروني، وبين أصولها وكتابها، واقتبس منها معارفه عن نظام الطبقات وطقوس التضحية والصوم وحياة الرهبنة ...

وهي بدورها تنقسم إلى 18 نصا رئيسا و18 نصا ثانويا، وتنسب لمؤلفيها من الحكماء، الذين نعتهم البيروني بأنهم أبناء براهما، ويقصد بهم الأشخاص "الإلهيين" الذين ولدو من جسد أو عقل براهما، وعددهم لا يحصى كما هو مقرر في النصوص الهندوسية المختلفة، مثل: "براشارا سمريتي"، نسبة للحكيم "باراشارا"، وهو من النصوص التشريعية المتأخرة التي تحدد قواعد السلوك، و"شاتابا سمريتي" التي تنسب للحكيم "شاتابا" المذكور في فارها پورانا، وهي نصوص تشريعية صغيرة الحجم، وأباستامابا سمريتي نسبة لـ"أباستامبا"، على الرغم من أنه لا يمكن الجزم بشأن إذا كان هو المؤلف، يتحدث عن القوانين الجنائية والمدنية وقواعد الطالب الفيدي، Daksha Smriti التي تنسب لـ"داكشا" أحد الحكماء السبعة. وتجدر الإشارة إلى أن البيروني أضاف نصين ومؤلفين وهما مَنُو وياجنِفالكيا، وذلك جريا على عادة بعد المدارس الهندية.

وعموما فهؤلاء أبناء براهما العشرة الذين تنسب لهم نصوص دارما شاسترا، نذكرهم وفق ترتيب البيروني ولفظه مع اللفظ اللاتيني من أجل التقريب، وهم آپستنت (Āpasthamba) پراشر (Parāśara) شاتاتپ (Śatatapa) سمبرت (Samvarta) دكش (Dakṣa) بسشت (Vasishtha) انكر (Angīrasa) جم (Yama) بشن (Viṣṇu) من (Manu) جاكملك (Yājñavalkya) أتر (Atri) هاريت (Harita) لكت (Likhita) شنك (Śanka) كوتم (Gautama) برهسپت (Bṛhaspati) كاتاين (Kātyāyana) بياس (Vyāsa) أشن (Uśanasī).

د - كتب المدارس الفلسفية الدينية

وهي كتب متنوعة تمثل بعض المدارس الفلسفية التي أشرنا لها سابقا، ومواضيعها في الغالب تتمحور عن النفس (أتمان) والتحرر والمعرفة، وبتعبير البيروني "في فقه ملّتهم وفي الكلام وفي الزهد والتألّه وطلب الخلاص من الدنيا" وقد أحصى منها البيروني ما كان موجودا في عصره، مثل :

جودباد: Gauda قد يكون نفسه هو الفيلسوف الهندي Gauḍapāda من مدرسة أدفيتا فيدانتا والذي عاش في القرن السادس الميلادي، ينسب إليه كتابGaudapada Karika ، المعروف أيضًا باسم،Māṇḍukya Kārik (Shastri,1975;JOHNSON:126)

سانخيا: سانخيا Samkhya ألفه كابيلاKapila ، يتناول العقائد الهندوسية في الروح والكائنات والتحرر، ذكر البيروني أنه ترجمه قبل كتابة تحقيق ما للهند.

بتنجالي: بتنجاليPatanjali ، سبق الحديث عنه في المبحث الأول، ترجمه البيروني واستفاد منه في الفصل الذي تحدث فيه عن "كيفيّة الخلاص من الدنيا وصفة الطريق المؤدّي إليه" (البيروني، 51-67).

نيايا: نيايا بهاشا Nyāyabhāṣya من تأليف كابيلا، يبدو أن هذا العمل لا علاقة له بمدرسة نيايا كما يمكن أن يوحي بذلك عنوانه، بل إن له علاقة بفلسفة بورفا ميمامسا.Purva Mimamsa

ميمامسا: Mimamsa والمقصود بها سوترات بورفا ميماسا التي ألفها جميني أحد تلاميد فياسا.

لوكاياتا: Lokāyata ، وتسمى أيضا "كارفاكا Cārvāka "من تأليف Brihaspati في الفلسفة المادية الهندوسية التي تؤمن بأن الحس أو التجربة هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة، ومن الناحية الأخلاقية فسرت السلوك البشري على أنه سعي لزيادة المتعة وتقليل الألم. ويعد الكتاب مفقودا حاليا، ويحتمل أنه كان كذلك في زمن البيروني، وأنه أخذ فكرة عنه سماعا فقط. كما أن باقي نصوص هذه المدرسة مفقودة ولم تبق سوى أفكارها وحججها في كتب المدارس المخالفة، من قبيل إنكار الغيب والحياة الآخرة والولادة الجديدة ومعها سائر الممارسات والطقوس الدينية (JOHNSON:80).

أكاستيا ماتا: Agastyamata من تأليف أكاستياAgastya ، واضح من وصفه أنه من نصوص مدرسة نيايا، لكنه مع ذلك يعد غير معروف من

مصدر آخر (Shastri)

فشنو دارما: vishnu dhrama ، ومعنى دارما الواجب منسوبة إلى نارايانا narayana معبود الفشنوية.

ثم كُتب تلاميذ فياسا، وهي كتب تحمل أسماء أصحابها من كبار حكماء الهندوسية، وكلهم من تلاميذ الريشي فياسا؛ ذكر البيروني منهم ستة: ديڤالا Devala وشكرا Sukra بهاركافا Bhargavaوبريهاسباتي Brihaspati (المشتري) وياجنِفالكيا Yajnavalkya ومَنُو Manu. (LINDQUIST,2005).

هـ- الملاحم: وهما ملحمتي رامايانا ومهابهارتا:

بخصوص مهابهارتا أطول نص في تاريخ الأدب السنسكريتية والعالمية، فيمكن الاطمئنان لكلام البيروني عنه؛ وذلك باعتبار النص الموجود ودقة المعلومات التي قدمها، وأيضا من خلال مراجعة شهادة المتخصصين في الهنديات، وتحكي ملحمة المهابهارتا قصة أسطورية لحرب قد تكون تاريخية، جرت ما بين 1200 و800 ق م. ودارت رحاها بين فرعين من سلالة الملك العظيم بهارتا، هما فرع باندو Pandu وفرع كوروKuru الفرعان الرئيسان للأسرة الحاكمة لمملكة هستينابور، ومحررها هو أحد شخصياتها، ونعني به بالتأكيد الحكيم "فياسا" ابن باراشارا الذي ألفها في مائة ألف مقطع (شلوكاس) مقسمة إلى 18 قطعة (پارڤا - pavana)، وقد ذكر البيروني فصولها الثمانية عشر وبين معانيها، باستثناء "فصل البداية" المسمى "آدي پارڤا" Adi) (Parvaالذي لم يذكره، أما باقي الفصول المتداولة حاليا فهي مطابقة لما ذكره البيروني مع اختلاف فقط في طريقة كتابة بعض الأسماء، وأحيانا قد نجد لبعض الفصول اسما ثانيا غير ما ذكره البيروني، جريا على عادة الهندوس في تسمية فصول الكتب المقدسة بموضوعها، أو أول كلمة من نصها أو أهم ما تقدمه من معرفة أو عمل .

وفصول "بهارتا" كما ذكرها البيروني هي: 1- سبها -Sabha Parva.2- آرنياكا-Aranyaka ، وفي النسخ الحالية غالبا ما تسمى ڤانا -Vana.3– وڤيراتا - Virataنسبة لڤيراتا ملك مملكة ماتسيا 4- أدّوك پارڤاUdyoga Parval ، وبهيشم Bhishma ، نسبة لبهيشما قائد جيش كورو، 5- درون Dronaنسبة للقائد درونا أحد أبرز قادة الحرب. 6-كارنا Karna نسبة لكارنا قائد لقوات كورو، 7- شاليا Shalya الملك شاليا أخ دوريودهانا Duryodhana أحد الشخصيات الرئيسية في حرب مهابهارتا . 8- چدا Gada أحد فروع شاليا پارڤا. 9- وسوپتك Sauptika التي تحكي كيف قام أشفاتاما بن درون " Aśvatthāman the son of Drona"بقتل جيش باندافا أثناء نومهم. بمدينة بنشالا Pañcāla ولم يبق منهم سوى سبعة محاربين فقط. 10 - چلپردانك -Jalapradanikaستري -Stri-parva.12 شأنت Santi التي تعد أطول أجزاء الملحمة، وهو أربعة فصول: (دانا دارما، رجا دارمانوساسانا، أباد دارمانوساسانا، موكشا دارما). 13- أسفاميذا -Asvamidha. 14 -موسالا، Mausalaوتحكي معركة عشائر يادافا (جادو) ضد ڤاسوديفا Vasudeva (كريشنا). 15- أشر من باس -Ashramavasika.16 پرستان Mahaprasthanika-Parva. 17 سفرك. 18- روهن Svargarohanika-Parva والفصل الختامي المسمى Harivamsaparvan يغطي تفاصيل عن حياة كريشنا (ڤاسوديفا) لم تغطها الأقسام السابقة

وفي سياق الحديث عن المهابهارتا تجدر الإشارة إلى أن فصل بهشيما أو بهيشم بتعبير البيروني يضم القطعة المسماة "البهاغافاد غيتا" ومعناها "الأنشودة الإلهية"، وتضم الفصول من 23 إلى 43، وموطن الفرادة في هذه القطعة أنه تم منحها نفس وضع نصوص شروتي، لأنها تحتوي على التعاليم التي ينقلها الإله "كريشنا" إلى "أرجونا" بطل الملحمة في ميدان المعركة، وبذلك صارت أهم مصادر فلسفة فيدانتا، ولعل البيروني أول من اهتم بنص "بهاغافاد غيتا" في مجالنا العربي الإسلامي وعرف الدارسين بمضمونها التوحيدي (عرفان، 2014،(.117-116 , Shastri) .

أما ملحمة رامايانا التي كتبها فالميكي، فهي كذلك نص كبير يتكون من 24000 شطر. وتحكي قصة راما الذي يمثل تجسيدا لفيشنو. ومن خلال رامايانا يتم تقديم شخصية راما كنموذج لطريقة العيش الفيدية، أي الشخص الذي يتبع الدارما دائما بغض النظر عن رغباته.

خاتمة:

بعد هذا العرض التاريخي والتطبيقي حول تاريخ تعرف العرب على النصوص المقدسة للهندوسية، نخلص إلى الملاحظات التالية:

- تركيز الدراسات الدينية والثقافية على الغرب والمسيحية واليهودية أكثر بكثير من الثقافات والأديان الشرقية، وهذا يحتاج إلى توازن من خلال استئناف حركة اكتشاف الهند التي بدأت قبل الإسلام وازدهرت زمن العباسيين، وبلغت أوجها مع البيروني، ثم تراجعت وما زالت دون المأمول.

التراث العلمي الذي تركه البيروني حول الهندوسية استفادت منه المؤسسات الاستشراقية أكثر من العربية، وهذا ما تشهد به القواميس والمراجع الغربية.

ما قدمه البيروني من وصف للكتب الدينية الهندوسية في كتابه تحقيق ما للهند من مقولة، هي معلومات تتسم بالعمق والدقة، وهي تراث حي في حاجة إلى تجليته وتقديمه للدراسين محدّثا، من أجل وصل جهود الماضي والتأسيس عليها في بناء علم هنديات عربي إسلامي يتجاوز المقولات الغربية وتحيزاتها.

قدمت هذه الدراسة نموذجا لاكتشاف فصل من فصول كتاب البيروني، فوجدته ناطقا بما تقدمه القواميس المعاصرة الهندية والغربية، رغم الفجوة الزمنية، وذلك لمعرفته باللغة السنسكريتية وتلقيه المعلومات مباشرة من عند أصحابها وللمنهجية الدقيقة التي اعتمدها في البحث والوصف والترجمة.

توصي الدراسة باكتشاف بقية الفصول والنصوص والأفكار التي قدمها البيروني حول الهند وثقافتها وتقاليدها الدينية والاجتماعية والعلمية.

كما توصي باكتشاف النصوص التاريخية والفكرية واختبار معرفتها بالبرهمية.

المصادر والمراجع

أزهر، م. (2022). الهند وذكرها في الأشعار العربية من القديم إلى الحديث. *مجلة أقلام الهند*، 7(4).

الادريسي، ش. (1989). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*. (ط1). بيروت: عالم الكتب.

البيروني، م. (1958). *تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة*. حيدر اباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.

البيهقي، ظ. (1964). *تاريخ حكماء الإسلام*. دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي.

التاجر، س. (2005). *عجائب الدنيا وقياس البلدان*. (ط1). مركز زايد للتراث والتاريخ.

الحموي، ي. (1993). *معجم الأدباء*. (ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

الدراويش، ح. (1977). *الترجمة و التعريب عند أبي الريحان البيروني. رسالة ماجستير غير منشورة*، الجامعة الأردنية.

السيرافي، ح. (1999). *رحلة السيرافي*. (ط1). أبو ظبي: المجمع الثقافي.

المسعودي، ع. (1973). *مروج الذهب ومعادن الجوهر*. (ط5). بيروت: دار الفكر.

المسعودي، ع. (2013). *أخبار الزمان وعجائب البلدان*. (ط1). مصر: مكتبة النافذة.

المقدسي، ط. (د ت). *البدء والتاريخ*. مكتبة الثقافة الدينية.

المنجد، ص. (1955). *المنتقى من دراسات المستشرقين*. لبنان: دار الكتاب الجديد.

الندوي، س. (2014). *العلاقات العربية الهندية*. (ط1). بيروت: مؤسسة الفكر العربي.

الهندي، ع.(2022). *شرح المعلقات السبع*. (ط1). دار الملك.

أمار، ح. (2023). *مجمع البحرين دراسة مقارنة بين الإسلام والهندوسية*. (ط1). الانتشار العربي.

برابهافانندا، س. (2010). *مقولات بتنجالي*. أبو ظبي.

برزك، ش. (1908). *عجائب الهند بره وبحره وجزايره*. مصر: مطبعة السعادة.

بطوطة، م. (1996). *رحلة ابن بطوطة*. الرباط: أكاديمية المملكة المغربية.

جمعة، ع. (2010). *اعرف نبيك*. مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

حبيب، ع. (2014). *الهند في العصور الوسطى*. (ط1). هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة.

خرداذبة، ع. (1889). *المسالك والممالك*. بيروت: دار صادر أفست ليدن.

فرما، ب. (2009). *عصر الهند*. (ط1). هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.

References

Dayananda, S. (1997). *Introduction to Vedanta*.Vision Books.

Hall, F. (1968) . *The Vishnu Purana; A System of Hindu Mythology and Tradition*.

Johnson, W. (2009) . *A dictionary of Hinduism*. Oxford University Press.

Lindquist, S.(2005). *In search of a sage: Yājñavalkya and ancient Indian literary memory*. Austin: The University of Texas.

Long, J. (2011). *Historical dictionary of Hinduism*. Lanham: The Scarecrow Press, Inc.

Mani, V. (1975). *Puranic Encyclopedia: A Comprehensive work with special Reference to the epic and Puranic literature*. Motilal Banarsidass.

Manmatha, N. (1907). *Vyasa Smriti (Vyasa Samhita*). H.C. Das Elysium press.

Meenakshi, J. (2022). *The India They Saw*. (2nd ed.). Prabhat Prakashan.

Sachau, E, C. (1910). *Alberuni's India: An Account of the Religion, Philosophy, Literature, Geography, Chronology, Astronomy, Customs, Laws and Astrology of India*. London, K. Paul, Trench, Trübner & Co.

Scharfe, H. (2018). *Education in ancient India*. Brill.

Schreiner, P. (1991) *Chandogya-Upanishad*. Oxford Text Archive Core Collection.

Shastri, A. (1975). Sanskrit Literature known to Al-Biruni. *Indian Journal of History of Science*, 10(2).

Werner, K. (1977). *A popular dictionary of Hinduism*. Taylor & Francis.